المجلس العربي للعلوم الاجتماعية

Arab Council for the Social Sciences
Conseil Arabe pour les Sciences Sociales

المجلس العربي للعلوم الاجتماعية
سلسلة أوراق العمل

مقطوعةٌ صوتيةٌ للحرب: تحدّي حدود الزمن والتجربة لإثنوغرافيا الحرب

– مزنه المصري –

ورقة عمل رقم 5

تموز/يوليو 2019

مقطوعةٌ صوتيةٌ للحرب: تحدّي حدود الزمن والتجربة لإثنوغرافيا الحرب

– مزنه المصري –

سلسلة أوراق عمل المجلس العربي للعلوم الاجتماعية

ورقة عمل رقم 5

تموز/يوليو 2019

الرجاء إرسال المراسلات إلى:

مزنه المصري

مستشارة وباحثة مستقلة

muznamasri@gmail.com

© المجلس العربي للعلوم الاجتماعية 2019
جميع الحقوق محفوظة

نشر هذا العمل للمرة الأولى في تموز/يوليو 2019.

إنّ هذا العمل متوفّر تحت رخصة المشاع الإبداعي نَسب المصنَّف 4.0 دولي (CC By 4.0). وبموجب هذه الرخصة، يمكنك نسخ، وتوزيع، ونقل، وتعديل المحتوى بدون مقابل، شرط أن تنسب العمل لصاحبه بطريقة مناسبة (بما في ذلك ذكر إسم المؤلّف، وعنوان العمل، إذا انطبقت الحالة)، وتوفير رابط الترخيص، وبيان إذا ما قد أجريت أي تعديلات على العمل. للمزيد من العلومات، الرجاء مراجعة رابط الترخيص هنا:
https://creativecommons.org/licenses/by/4.0

إن الأفكار والآراء الواردة في هذا العمل هي آراء المؤلف/ة ولا تعبّر بالضرورة عن وجهات نظر المجلس العربي للعلوم الإجتماعية، ولا تلزمه بها.

لمحة عن سلسلة أوراق العمل

تهدف سلسلة أوراق عمل المجلس العربي للعلوم الإجتماعية إلى نشر أوراق أكاديمية جديدة ومثيرة تخصّ المجال والمنطقة، واستعراض أفكار من خلال المناقشة العلمية. ويرحّب المجلس العربي للعلوم الإجتماعية بالأوراق التي تعالج مسائل ذات طبيعة موضوعية أو نظرية أو منهجيّة أو فنيّة، والتي تعتمد مقاربات إمبيريقية، أو نظرية، أو الإثنين معًا. ويستقبل المجلس العربي للعلوم الإجتماعية الأوراق باللغة العربية، والإنجليزية، والفرنسية .

المجلس العربي للعلوم الإجتماعية
بناية علم الدين، الطابق الثاني
شارع جون كينيدي، رأس بيروت
بيروت، لبنان
هاتف: 009611370214
www.theacss.org

مقطوعةٌ صوتيةٌ للحرب: تحدّي حدود الزمن والتجربة لإثنوغرافيا الحرب[1]

ملخص

يستكشف هذا المقال قيمة الاهتمام بالتجارب الحسّية في دراسة النزاع والحرب، لا سيما تجارب عالِمة الإثنوغرافيا نفسها التي عاشت الحرب والعنف في السابق. ويحمل المقال في آنٍ معًا دعوةً للتحلّي بحساسيةٍ أكبر تجاه الأبعاد السّمعية والشمّية لدى البحث في العنف، ومساءلةً نقديةً لمفهوم الزمن المحدّد في تجربة العمل الميداني. وتتضمّن معايشة الحرب لقاءاتٍ متكررةً مع العنف و"عيشًا" مطولًا في ظلّه. إن كل لقاءٍ مع العنف يربط ما بين الأزمنة المختلفة: اللحظة الحاضرة، وذكريات العنف الماضي والقلق بشأن تكرّره في المستقبل، وهي كلّها لحظاتٌ تولّد حسًّا بالـ"نحن" بين الأشخاص المعنيّين. إن التجربة المَعيشة للحرب هي تجربةٌ تراكمية، تحفر معالمها على أرواح وأجساد مَن يعيشونها، ويتغيّر أثرها مع اجتيازهم مراحل الحياة المختلفة. كذلك تتّسم الحرب بكونها عابرةً للأجيال، إذ غالبًا ما تكون التجربة الفردية مع العنف وثيقة الارتباط بتجارب الأجيال السابقة والتوقعات للأجيال المستقبلية.

الكلمات المفتاحية:

الوسائل الحسّية، الإثنوغرافيا الذاتية، النزاع والحرب، العنف، لبنان، "العيش في"، معايشة العنف

معايشة حسية للحرب

اكتسب الاهتمام بالعامل الحسّي في البحث الإثنوغرافي تقديرًا واسعًا بما يكفي للقول بحدوث "تحولٍ حسّي" في حقل الأنثروبولوجيا في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي (Howes 2003, 28). يسلّط هذا المقال الضوء على فوائد الاهتمام بالتجارب الحسّية في دراسة النزاع والحرب، لا سيما تلك الخاصة بعالِمة الإثنوغرافيا نفسها التي عاشت العنف والحرب قبل انطلاقها إلى العمل الميداني. ويحمل المقال في آنٍ معًا دعوةً للتحلّي بحساسيةٍ أكبر تجاه الأبعاد السّمعية والشمّية لدى البحث في العنف، ومساءلةً نقديةً لمفهوم الزمن المحدّد في تجربة العمل الميداني.

أقترح في هذا المقال بأنّ الاهتمام المنهجيّ بالعامل الحسّي هو إحدى الطرائق التي قد تساعد في التقاط تجربة معايشة العنف، أو ما تسميه الباحثة لميا مغنية "العيش في" العنف (Moghnieh 2017). فضلت استخدام "معايشة الحرب" لتعبيره عن نوع من الحميمية في تجربة العيش في الحرب كما الدّور الفاعل للأفراد الذين يعيشون في أماكن النزاع في تشكيل التجربة المعيشة للحرب، بدل تعبير "العيش في" الذي استخدمته مغنية كترجمة لتعبير "Living in" والذي تميزه عن "مصادفة العنف" كتجربة منفردة ومحدودة زمنيًّا (مغنية 2019). وأركّز على التجارب السّمعية والشمّية بالإضافة إلى التحرّي التحليلي والنصّي لتجارب العمل الميداني، بهدف إنتاج سردياتٍ أكثر دقةً و"أكثر إخلاصًا لوقائع الميدان" (Stoller 1989, 9). يكتسب العنف الجزء الأكبر من فاعليته بسبب طبيعته المشهدية وقدرته على زرع الخوف في النفوس فور مواجهته (Riches 1986). إن إيلاء الاهتمام للتجربة الحسّية، وللمشاعر والذكريات والمخاوف التي تثيرها، يسمح بفهم كيف يراكم الناس – فرديًّا وجماعيًّا – تلك المشاهد العنيفة ويتعاملون معها.

هذا المقال هو مقالٌ إثنوغرافي – ذاتي إلى حدٍّ كبير (Ellis, Tony E. Adams, and Arthur P. Bochner 2011)، وهو محاولةٌ لتحديد التجارب المتراكِمة والمتجسّدة التي تؤثر في قراءتي للموقع الميداني في أوقات النزاع. وأبني تأمّلاتي هنا حول سلسلةٍ من الموجزات الإثنوغرافية التي تناقش التجربة الحسّية في الحرب وتقاطُعَها مع العامل الزمني. إن معايشة الحرب أو النزاع المطوّل تتضمّن بالضرورة لقاءاتٍ متكرّرةً مع العنف وعيشًا مطولًا في ظلّه. وكل لقاءٍ مع العنف يربط ما بين الأزمنة المختلفة: اللحظة الحاضرة والخوف الناجم عن ذكريات العنف الماضي من جهة، والقلق بشأن تكرّر

العنف في المستقبل من جهةٍ أخرى. بالتالي، ليس من حدثٍ معزول، إذ إن كل لقاءٍ يحفر معالمه على أرواح وأجساد مَن يعيشونه، ويصبغ التجارب المشابهة له في المستقبل.

لا أقصد هنا منح الأولوية لتجربة عالِمة الإثنوغرافيا، بل توظيف تجربتها الخاصة تلك كنقطة انطلاقٍ نحو المزيد من التأمّل. كذلك لا أقصد القول إنّ تجربة عالِمة الأنثروبولوجيا – وإن كانت تنتمي إلى السياق الذي تدرسه – تمثّل تجارب المُحاوَرين/ات أو تختصرها. لكن على أيّ حال، أجادل بوجود نوعٍ من تشاركٍ لتجارب الحرب بغضّ النظر عن طبيعة اللقاءات الشخصية المباشرة مع الحرب والعنف؛ فهذه التجارب "تُصاغ بفعل التاريخ المحدّد لكل مجتمعٍ وأساطير الهويّة الجماعية خاصّته، وتنشّطها رواسب ذكريات التهديدات القائمة ضد روح الجماعة" (Coronil and Skurski 1991, 289). لكنّ لتلك التجارب أيضًا أوجهًا تتجاوز الحدود الوطنية والسياسية، فقد استنتجتُ على سبيل المثال، أن تجاربي مشتركةٌ مع زميلاتٍ وزملاء من صربيا وإيرلندا ممّن عاشوا الحروب الأهلية ولم يزوروا لبنان قَط. بالتالي، الموضوع هنا ليس الانتماء إلى الشعب الأصلي بحيث تكون الباحثة المطّلعة "من الداخل" أكثر فهمًا للحرب "ثقافيًّا"، بل هو معايشة تجارب متكرّرة من الحرب والعنف، ما يجعل أي لقاءٍ مع العنف جزءًا لا يتجزأ من الاستعدادات الحسّية المتراكِمة والمتجسّدة المتعلّقة بالعيش في الحرب.

منهجيًّا، يعني هذا جعل التجارب الحسّية أكثر صراحة، ومعاينة أبعادها الثقافية والمتشارَكة من منظورٍ تحليلي. أعتمد هنا ما يسمّيه غسّان حاج "التأرجُح الإثنوغرافي" (Hage 2010)، وهو حالٌ تتمثّل بخضوعنا للتشكّل بفعل التجوال الإثنوغرافي بين *المشاركة* – والعواطف المرتبطة بتلك المشاركة في حالة حاج – من جهة، و*الملاحظة* وإخضاع العواطف للمنظومة التحليلية من جهةٍ أخرى. وأقترح إيلاء المزيد من الاهتمام لتجارب الباحثين/ات الحسّية، مع إخضاعها باستمرارٍ للتحليل وتحرّي مدى تشاركيّة تلك التجارب بين المشاركين/ات في البحث.

وبغرض التوصّل إلى فهمٍ أعمق لحدود التجربة الحسّية وخصائص التجربة المُعاشة للحرب، وجدتُ أن من المفيد مجاوَرة تجربتي الخاصة مع تجارب الصديقات والأصدقاء ممّن لم يختبروا الحرب. تصرّ بيرانو على أن أساس الأنثروبولوجيا هو الاختلاف، وهو في طبيعته اختلافٌ مقارَن (Peirano 2009, 57-58). تاريخيًّا، درس علماء الأنثروبولوجيا "الآخر/ الأخرى"، ورَغم تحوّلهم إلى دراسة "آخر/ أخرى" أقل إكزوتيكية مع توجّههم لإجراء البحوث في بلدانهم أو في المناطق المدينية، وازدياد

عدد علماء الأنثروبولوجيا من السكان الأصليّين، بالإضافة إلى عوامل أخرى، لا تزال الدراسة المقارَنة للاختلاف محوريةً في حرفة الأنثروبولوجيا.

في هذا المقال، أحاول فهم مجتمعي البحثي وتجربتي الخاصة من خلال مقارنتها بالتجارب المختلفة لصديقاتي وأصدقائي – "الآخرين والأخريات" – ممّن لم يعيشوا تجارب مشابهة من الحرب والعنف. وتبقى الغيريّة، وهي مُعرّف رئيس للأنثروبولوجيا، ملمحًا محوريًّا لتفكّري في هذا المقال، إنما بصفتها أداةً لفهم المألوف بدلًا من فهم المُستغرَب.

إن الاهتمام باللقاءات المباشرة مع لحظات العنف الخارقة لا يناقض الطبيعة الاعتيادية للنزاع السياسي بالنسبة لمَن يعيشون في مناطق يسِمها العنف المطوّل (Kelly 2008; Hermez 2012). فهذا الاهتمام يتيح لنا نظرةً مقرّبةً إلى الأبعاد الحسّية للحدث المُعاش والطرق التي بموجبها "يلتصق الحدث بالحياة اليومية عبر مجسّاته، ويتكوّر في تجاويف المعتاد" (Das 2007, 1). في الواقع، أستكشف هنا كيف تستمرّ "أحداث" العنف تلك وذكرياتها وتجاربها المتجسّدة بالتعايش مع الحياة اليومية. لذا، أستخدم في غالب الأحيان مصطلح "الحرب" بدلًا من "العنف" أو "النزاع"، بالإضافة إلى ملاحظتي أن معظم مَن حاورتهم نادرًا ما يستخدمون مصطلح "العنف" لدى الحديث عن تجاربهم مع الحرب، بل يعمَدون إلى استخدام مفردة "الحرب" نفسها التي تلتقط على نحوٍ أفضل تجربة العنف والنزاع وطبيعتهما اليوميّة الممتدّة زمنيًّا.

إن تسليط الضوء على الطبيعة اليومية والمطوّلة للتجربة المَعيشة للحرب، لا يجب أن يُفهم كوصفٍ لـ"جوهر" الحرب أو "تعريف" لها، كما أنه لا ينفي التباس تجارب الحرب وتعدّديتها. وفي تأمّله في ما يسمّيها "حرب لبنان"، يبيّن هرمز استحالة التوصّل إلى "تعريفٍ موحّدٍ أو معنًى محصور" للحرب (2017: 23). ينصبّ تركيزي في هذا المقال على السمعي والشمّي لأنهما يثيران فيّ تذكّر تجاربي الشخصية مع الحرب والتأمّل فيها. ثم إنّني أستخدم هذا التأمّل الشخصي، على المستوى التحليلي والمُقارَن، لأتفكّر فيما يأتي: بماذا تشي رد فعلي المتجسّدة بشأن تجربتي مع العيش في الحرب في لبنان، وفي الحرب عمومًا؟ ومتى تردّد تجربتي صدى تجارب من حاورتهم في الميدان؟ وإذ أقارن تجربتي بتجربة صديقتي وقتذاك وزميلتي في السكن التي اختبرَت مواجهاتٍ مع الجيش الإسرائيلي في فلسطين

– ومن ثم "لقاءً" آخر دام ستة أسابيع اختبرناه معًا – تُتاح لي الفرصة لتسليط الضوء على حيثيّات العيش في حروبٍ ممتدّةٍ زمنيًا.

لطالما تمتّعت المنهجيّات البصرية بمكانةٍ في الأنثروبولوجيا، كما عثرت العوامل السّمعية على مكانٍ لها في الفيلم الإثنوغرافي. لكن الأدبيات تظهّر هرميةً للحواس وموقعًا متميّزًاللعامل البصري على المستوى المعرفي مقارنةً بالصوت، والرائحة والمذاق (Bendix 2000; Bull and Back 2003). على سبيل المثال، يجادل بيريندت (1992) بأنّ البصري يحدّ من قدرتنا على التقاط التجربة البشرية ويطالب بـ"ديموقراطية الحواس". في هذا المقال، أقلّل إلى حدٍّ كبيرٍ من قيمة البصري لأن تصوير الإعلام للعنف والحرب قد ملأ مخزوننا البصري بصورٍ غالبًا ما تسيء تمثيل تجاربنا الخاصة المَعيشة مع الحرب. إن تشكيل الإعلامِ للحرب وإسقاطاته لها - وهو ما نتعرض له يوميًا سواء بمشاهدة صور الدمار والجثث أو الصور المجمّلة لعنف الدولة - يصبغ تجاربنا عندما نواجه الموت والدمار في الحياة الواقعية. وتجادل فلدمان بأن القواعد اللغوية التصويريّة للإعلام الجماهيري هي "جهازٌ للاستعمار الإدراكي الداخلي والخارجي ينشر نزعاتٍ حسّيةً معيّنةً ويُشرعِنها على حساب أخرى" (Feldman 1994, 305). بالتالي، الاعتماد على البصري لفهم تجربة العنف هو مسعًى صعب المراس يتطلّب تفكيك تأثير الصورة الإعلامية، بينما يظلّ السّمعي والشمّي أقلّ تأثرًا بانطباعات الإعلام.

فتيةٌ صاخبون والخوف من تكرار الحرب

المشهد الأول: شباط 2008

■■ إنها ليلة السبت في الأسبوع الأول من شهر شباط 2008. يظهر على التلفاز سعد الحريري، زعيم تيار المستقبل وتحالف 14 آذار، ليحثّ جماهيره على المشاركة في التظاهرة المقرّرة بعد بضعة أيامٍ في ساحة الشهداء. وكما جرت العادة منذ العام 2005، يُحضّر لتظاهراتٍ ضخمةٍ يوم 14 شباط إحياءً للذكرى الثالثة لاغتيال والد الزعيم الشاب، رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري.

أجلس في منزلي في انتظار سماع الخطاب المتلفز للزعيم الصاعد. وعلى بعد أقلّ من مئة مترٍ، أسمع إطلاق الرصاص المستمر على يد مناصريه احتفاءً بظهوره على الشاشة، وهي ممارسةٌ غدت معتادةً مع كل خطابٍ لكل زعيمٍ سياسي لبناني.

يستمرّ إطلاق النار الكثيف بعد انتهاء الخطاب، ذاك الصوت الذي يقمع سكان حيٍ بكامله ممّن عانوا سنينًا طويلةً من الحرب. لا بد من أن أزيز الرصاص والمفرقعات في سماء بيروت يوقظ فيهم ذكريات

الحروب السابقة الكثيرة ومخاوفها. أسمع تلك الأصوات مباشرةً في اللحظة التي أستذكر فيها أصواتًا سكنت ذاكرتي منذ الحرب الأهلية اللبنانية التي امتدّت 15 عامًا وانتهت عام 1990. في هذه الليلة الشباطية، أسمع الإيقاع المتنافر لإطلاق النار وأشمّ رائحة البارود. أشعر بحدّة الصمت الذي يكتنف كل شيءٍ باستثناء الرصاص فور بدء إطلاقه، وأتنبّه إلى دقّات قلبي المتسارعة. تنضمّ كلّ حواسي الأخرى إلى عملية الاستماع، فأسمع صوت الرصاص لا بواسطة أذنيّ فحسب، بل بواسطة جسدي كله. ■■

تستند الرواية أعلاه إلى ملاحظاتٍ ميدانيةٍ دوّنتها في العام 2008 في أثناء إنجازي العمل الميداني لنيل درجة الدكتوراه في بيروت في خلال الأعوام 2008 – 2010. ورغم أن بحثي لم يركّز على التجربة المَعيشة للنزاع والعنف بل على مفاوضة النخب السياسية وتشكيلها، فإن الوضع السياسي المتشنّج وحوادث العنف المتكرّرة فرضت على بحثي ثيمات النزاع والعنف. كان مجتمعي البحثي يتمثّل بنادي النجمة الرياضي، نادي كرة القدم الأكثر شعبيةً في لبنان، والذي كان يعاني نزاعاتٍ داخليةً وانقساماتٍ عكست الأزمة السياسية الأكبر في البلاد. كانت تلك الفترة مأزومةً على نحوٍ خاص، فبعد اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري في العام 2005، تفجّرت انقساماتٌ حادةٌ شطرت الفرقاء السياسيّين الأساسيّين إلى معسكرَين متعارضَين بحدّةٍ عُرفا بتحالف 8 آذار وتحالف 14 آذار. ونزل مئات الآلاف من المناصرين إلى الشوارع دعمًا لهذا المعسكر أو ذاك منذ تأسيسهما. وفي خلال تلك الفترة، غدت اشتباكات الشوارع والسيارات المفخّخة والاغتيالات أحداثًا متكررة. ونظرًا لكوني عشت في طفولتي في لبنان لسنواتٍ تضمّنت جزءًا كبيرًا من الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990)، لم تكن تلك المرة الأولى التي أختبر فيها البلاد في حالٍ من الاضطراب.

يستند تفكّري في التجربة أعلاه إلى حدٍ كبيرٍ على مقارنتها بتجربة صديقتي ليلى. كانت ليلى زميلتي في السكن آنذاك، وهي ذات أصولٍ عربيةٍ لكنها نشأت في أوروبا. كانت ليلى في مثل سنّي، وتنتمي إلى خلفيةٍ اقتصاديةٍ مماثلةٍ إلى حدٍ ما، وتعرف الثقافة المحلّية في لبنان جيدًا، وتتكلّم العربية وتعمل في حقلٍ مهنيٍ مشابهٍ للحقل الذي أعمله فيه. كلتانا لم نكن من أصولٍ لبنانية، كما سبق لنا العيش في بلدانٍ عربيةٍ مختلفةٍ وفي أوروبا، لذا لم يكن من السهل إطلاق صفة "المطّلعة من الداخل" (insider) أو "الخارجية" (outsider) على أيٍ منا. لكن الفارق الرئيس الذي قد يفيد المقارنة بين تجربتَينا كان أنّني، على عكس ليلى، عشت في بيروت في أثناء الحرب الأهلية. لذا، هي لم تراكم معارف تجربة المعايشة المطوّلة للحرب التي اختبرها كثيرون من بنات وأبناء جيلي ممّن نشأوا في الحرب الأهلية اللبنانية. ورغم

حضورها في المنزل معي في الليلة الموصوفة في الموجز أعلاه، وانزعاجها من ضجيج إطلاق النار والاستعراض الفجّ للذكورة، لم تكن ليلى مثقلةً بخوفٍ باطني عميقٍ من احتمال عودة الحرب الأهلية. فسّرت كلٌّ منا على نحوٍ مختلفٍ الأصوات التي سمعناها معًا. بالنسبة إليّ، كانت تلك الأصوات تحمل المعاني الثقافية والشخصية التي كان بوسعي فهمها وتفسيرها والتعامل معها. بالنسبة إليّ، كانت أصوات إطلاق النار تجلّياتٍ لمعركةٍ تهدف إلى السيطرة على المساحة المدينية لبيروت، فاستشعرتُ خطر الحرب المحدق واحتمال تقييد الحياة اليومية بفعل نزوات شبانٍ مسلّحين.

كان الخوف مرتبطًا بلحظاتٍ زمنيةٍ عدّة في آنٍ معًا؛ فاللحظة الآنية استعادت تجربتي الخاصة السابقة في عيش الحرب الأهلية كطفلةٍ تعرف معنى اقتتال الرجال في الشوارع. وتتشدّد تونكيس على أن السّمع "يتضمّن علاقةً خاصةً بالتذكّر [...]. يأتينا الماضي بأشكاله الأكثر فرْضًا ومباشرةً وحسّية" (Tonkiss 2003, 307). لكن خوفي لم يكن مجرّد استذكارٍ لتروما حدثت في الماضي، بل كان قلقًا من احتمالات المستقبل، وخوفًا من اضطراري إلى أن أعيش مرةً أخرى حربًا قد تنشب مجددًا في لبنان.

ولاحظتُ أن هذا الخوف كان مشتركًا بين صديقاتٍ وأصدقاء كثرٍ من جيل الحرب. ورغم أن الموضوع لم يكن ثيمة بحثي، ذكرتُ في ملحوظاتي الميدانية آنذاك كيف أنّي والمشاركين/ات في بحثي – وقد سبق لنا أن عشنا دوراتٍ عدّة من الحرب من بينها الحرب الأهلية اللبنانية – عمدنا إلى التكهّن بإمكانية وتوقيت نشوب حربٍ أهليةٍ جديدة. وقتذاك، أخذتُ والأصدقاء نتساءل عن المعسكر السياسي الذي قد يسيطر على أحيائنا، وفي أكثر السيناريوهات رعبًا، إن كان أيٌّ من بيوتنا سيقع عند خطوط التماس. ولم نكن وحدنا في عملية الاستكشاف تلك، إذ وجد الأمر صدًى في المقالات الصحافية والأفلام التي أُنتجَت في تلك الفترة.[2]

يناقش هرمز سيرورةً مماثلةً من ترقّب الحرب في لبنان، وهي سيرورةٌ تجمع بين ثلاث لحظاتٍ زمنيةٍ من الماضي والحاضر والمستقبل. ويقول محاججًا، إن "الترقّب يؤدّي بنا إلى التذكّر" ويُلحق العنفَ بما هو اعتيادي، وبالتالي "تظلّ الحرب حاضرةً باستمرارٍ كقوةٍ مشكّلةٍ للحياة الاجتماعية" (Hermez 2012, 330). وعلى عكس ما يطرحه هرمز (2012)، قد يكون التذكّر المدفوع بإشاراتٍ تحدث في محيطنا هو السبب وراء ترقّبنا الحرب. وفي العادة، يبني المرء على المعرفة المتراكمة من تجارب العنف والحرب المُعاشة، ما يسمح بقراءة إشارات تصعيدٍ محتملٍ في السياق الذي يعيش فيه. وكامرأةٍ

عاشت الحرب الأهلية وأجرت تحليلاتٍ يوميةً – غير محكيةٍ غالبًا – للسياق الدقيق وديناميّاته، أصبحتُ واعيةً لعمق ذلك التحليل وفرادته، كما أدركتُ معرفتي المتراكمة بالحرب إلى حدٍّ واسعٍ من خلال مجاورتها ومقارنتها بالتجارب التي تنقص الآخرين والأخريات، مثل ليلى.

نحن اللواتي اختبرنا تجربةً كتلك، لدينا نظريّاتنا بشأن أحداث الحرب وطرائق عملها. لقد سبق لنا واستمعنا وتتبّعنا الخطابات السياسية التصعيدية والاتهامات المتبادلة بين مختلف الأطراف السياسيين، كما التقطنا الإشارات الكامنة في أحداثٍ وتفاعلاتٍ تبدو عاديةً وبسيطة: أيّ ملصقاتٍ تُعرض وأين؟ كم يطول عرض الملصق قبل اعتراض أحد السكان، وكيف يجري التعبير عن ذلك الاعتراض، وما تكون ردّ الفعل عليه؟ كيف هي العلاقة بين الجارة القاطنة في الطابق الأول والتي تناصر فريقًا سياسيًّا معينًا، والجار في الطابق الرابع الذي يناصر فريقًا آخر؟ والأهم، أننا نلتقط إشاراتٍ منبعثةً من الانقباض الذي نشعر به في معِدنا والليالي التي نعجز فيها عن النوم – من ذلك الخوف المزروع في أحشائنا نتيجة قراءتنا المستمرة للإشارات المستترة والقرع الخافت لطبول الحرب.

يقول كلٌّ من بول وباك إن "من الممكن أن تكون الذكريات محفوظة في سجلات الثقافة السّمعية" (Bull and Back 2003, 13). وفي حالة لبنان، يتجاوز سجلُ الثقافة السمعيّة الموسيقى والأغاني ليطال مشهدًا سمعيًا من القذائف والرصاص. بالطبع، شكّلت أصوات الرصاص والقذائف إلى حدٍّ كبيرٍ المقطوعة الصوتية التي رافقت طفولتي. وعلى غرار أدورنو، يشدّد بول وباك على أن "الأصوات مغروسةٌ بالمعاني الشخصية والثقافية؛ فهي لا تأتينا كمجرّد أصواتٍ خام" (Bull and Back 2003, 9). وفي محاولاتٍ تجريبيةٍ أجريتها، شغّلتُ تسجيلاتٍ لأصوات إطلاق نارٍ أمام مجموعةٍ من الأصدقاء في مناسباتٍ مختلفةٍ ثم سألتهم عما يسمعون، فجاء جواب من عاشوا الحرب الأهلية أنهم كانوا يسمعون "الحرب"، لا "أصوات إطلاق النار"، كما أجاب الآخرون ممن لم يختبروا الحرب. لقد أبرم من عاشوا الحرب صلاتٍ مختلفةً بالسجلات التأويلية لأصوات إطلاق النار، وبالتالي قدّموا روايةً "تفسيريةً" لصوتٍ مرتبطٍ بالحرب، بينما قدّم الآخرون ممّن لم يعيشوها روايةً "وصفيةً" إلى حدٍ كبير.

إن عملية تأويل الصوت أو "الاستماع النشيط" الذي يتضمّن "تكييف آذاننا لتسمع من جديدٍ المستويات المتعدّدة للمعنى المُحتمل كمونه في الصوت ذاته" (Bull and Back 2003, 3)، هي مهارةٌ يمكن لعلماء وعالِمات الأنثروبولوجيا أن يتعلّموا صقلها وتوظيفها[3]. شخصيًّا، ساهم تخصّصي كعالِمة

أنثروبولوجيا بصرية، معطوفًا على تجاربي في صنع الأفلام، في زيادة وعيي بالصوت والتفكّر في معناه. ولدى البدء ببحثي الميداني، قمت بمحاولاتٍ تجريبيةٍ في التصوير وتفكّرتُ في الأصوات التي أردتُ التقاطها. وعلى سبيل المثال، سجّلتُ مرةً شريطًا فيلميًا تُسمع فيه أصداء صرخات اللاعبين وهي تتردّد في المدرج الخالي في خلال مباريات كأس لبنان من دون أن ترافقها أيّ هتافاتٍ أو أناشيد، ما عبّر عن غياب الجماهير على نحوٍ أفضل مما كان يمكن لمشهد المدرجات الخالية أن يفعل. ما نحتاجه ليس تغييرًا جذريًّا في ممارسة مراقبة المشاركين/ات، بل مشاركة حسّية ناشطة وتفكّرًا في التجربة الحسّية.

حربٌ على إيقاع مقطوعةٍ صوتيةٍ مختلفة

المشهد الثاني: صيف 2006

■■ ناقشتُ وليلى أصوات الطائرات الحربية في السماء. كان صوت طنين الطائرات المسيّرة جديدًا بالنسبة لي. إنها التكنولوجيا الجديدة التي يطوّرها الإسرائيليون ويستخدمونها للمرة الأولى لارتكاب القتل الموجّه[4]. لكنني أعرف أصوات الطائرات الأخرى. أشرح لليلى كيفية التمييز بين صوت الطائرة الاستطلاعية وصوت الطائرة الحربية وهي تستعد لقصف هدفٍ ما. أُفاجأ بأنّني أمتلك تلك المعرفة، ولا أعرف حتى ما إذا كانت تلك المعرفة دقيقة. ثم أتذكر الحصار الإسرائيلي لبيروت في العام 1982 وزيارة أحد أصدقاء العائلة الذي كان يقطن في حيٍ يرزح تحت القصف اليومي. كنت طفلةً آنذاك وذُعرت عندما صرخ قائلًا "غارة!"، قبل ثوانٍ من سقوط قذيفةٍ على أحد المباني المجاورة. ■■

يتناول الموجزان أعلاه وأدناه الحرب الإسرائيلية على لبنان التي امتدّت ثلاثةً وثلاثين يومًا وعُرفَت باسم حرب تمّوز 2006 والتي اندلعت قبل ثمانية عشر شهرًا من بدء عملي الأثنوغرافي الميداني. وتسبّبت الحرب بمقتل 1100 شخصٍ، وجرح 4000 آخرين، ونزوحٍ موقتٍ لأكثر من مليون لبناني/ة وتدميرٍ واسعٍ للمباني والبُنى التحتية (Harbi 2014). وبصفتي ناشطةً وموظفةً في منظمةٍ لحقوق الإنسان وقتذاك، صوّرتُ وأجريتُ مقابلاتٍ مع أفرادٍ فقدوا أقارب أو أصدقاء لهم ودُمّرت بيوتهم. زرتُ وقتها معظم القرى المدمّرة في جنوب لبنان حيث عملتُ لسنواتٍ عدّة قبل نحو عقدٍ من الزمن. واحتفظتُ آنذاك بمذكّراتٍ شخصيةٍ وأنشأتُ مدوّنة، كما ساهمتُ في التوثيق لصالح مواقع إلكترونية عالمية كانت تغطّي مجريات الحرب.

للحروب الإسرائيلية "مقطوعةٌ صوتيةٌ" مميّزة. إذ لا يُسمع صوت إطلاق نارٍ، بل فقط صوت الطائرات الحربية وهي تقوم بمهمّات استطلاعٍ أو قصف، بالإضافة إلى دويّ انفجارات الصواريخ. ليلى، التي عاشت في فلسطين لبضع سنواتٍ في خلال الانتفاضة الثانية، كانت تألف تلك الأصوات نوعًا ما. وفي خلال حرب 2006، وتحت العنوان الفرعي "وحده صوت القصف يُسمع قريبًا منا"، كتبَت ليلى في مذكّراتها:

> في الليل، نلتقي مجددًا في حانة بارومتر. من هناك، يمكننا سماع قصف الضاحية. بدا صوتُ أحد الانفجارات كأنه وقع عند زاوية شارعنا. تقفز إحدى الفتيات من على الطاولة وتدور حول نفسها مذعورة. تطمئنني مزنة: "يبدو الصوت قريبًا جدًّا لأن الصاروخ أُطلقَ من سفينةٍ حربية. بعد وقتٍ تصبحين قادرةً على تمييز الأصوات". بعض هذه الأصوات ما زال مدفونًا في ذكرياتي عن فلسطين. [...] عندما يقصفون، يتوقف القلب لثانية، ويبصق الدماغ تلقائيًّا الجملة الآتية: "سوف نموت جميعًا". إنها فكرةٌ غير عقلانية، إذ كنتُ أكون في معظم الأحيان على مسافةٍ آمنة. لكن عقلي كان يردّد تلك الفكرة الراسخة طوال الوقت من دون أن يستطيع السيطرة عليها. (Al-Zubaidi 2006)

تكتب ليلى عن خوفٍ مُستحثٍ صوتيًّا من نوعٍ آخر، خوف يمكن الشعور به في اللحظة الآنية، عندما "يتوقف القلب لثانية"، وتلوح إمكانية الموت في ذلك الزمان والمكان. كان ذلك خوفًا مختلفًا عن الخوف الذي شعرتُ به لدى سماعي أزيز الرصاص في الموجز الأول، من دون أن يساورني القلق بشأن سلامتي الجسدية.

يجادل ستولر بأن "الذكريات الثقافية مغروسةٌ في الروائح والأصوات والمناظر" (Stoller 1997, 65)، مشدّدًا على أن "الجسد هو المخزن الرئيس للذكريات الثقافية" (Stoller 1997, 57). لكن بينديكس (2000) تسائل مدى تشكيل الثقافة للإدراك الحسّي فعليًا، مجادلةً على غرار غريغ أوربان (1991)، بأنّ التجارب الحسّية هي تقنياتٌ منقوشةٌ في الجسد قبل أن تُسمّى أو تغدو جزءًا من الوعي. لكن بينديكس تشير أيضًا إلى أن السيرورات السّمعية تحديدًا، وأضيف هنا الشمّية، لا تخضع فورًا وبسهولةٍ لسيرورات التنظيم الاجتماعي. بناءً عليه، تقترح بينديكس أن نسائل "حدود الإدراك والتلقّي الحسّي وأن نسعى إلى فهم التحوّلات بين الأبعاد الفردية والثقافية والعابرة للثقافات" (Bendix 2000, 41).

ورغم اختلاف تأويلاتنا، فإنّ أصوات الحرب استثارت بي وبليلى ليس فقط ذكرى تجارب الحرب الماضية، بل أيضًا الإحساس بالتأثير الجماعيّ لتلك التجارب. كلتانا، بالإضافة إلى صديق العائلة المذكور في الموجز والفتاة المذعورة في حانة بارومتر، عرضة لفرضيّة الموت ذاتها. في مذكّراتها، تستخدم ليلى ضمير المتكلّم بصيغة الجمع "نحن" بدلًا من ضمير المتكلّم المفرد "أنا"، وكذلك فعلتُ أنا في كتاباتي المبكرة عن تلك التجارب. لكن تعريف الجماعة التي يشير إليها ذلك الضمير ليس بالأمر السهل. ويقول بول وباك (2003, 6) إن "الصوت يربطنا بعضنا ببعضٍ على نحوٍ لا يستطيع البصر فعله"، مجادلَين بأنّ وجود حالةٍ من الـ"نحن" أو "أن نكون معًا" هو أمرٌ متأصّلٌ في اختبارنا الصوت.[5]

لكن هذه الحجّة وحدها لا تكفي لشرح كيف يمكن لأصوات الحرب أن تشكّل الجماعة. وأجادل هنا بأنّ حالة الـ"نحن"، وهي من خواصّ التجربة السّمعية، تتجاوز الصوت وتقع في قلب بعض تجارب مُعايشة الحرب والنزاع. حالة الـ"نحن" هذه لا تقتصر على الطبيعة المتشارَكة للصوت، بل تتضمّن أيضًا ذكرياتٍ متجسّدةً مرتبطةً بالتجارب السّمعية الماضية. عندما أتفكّر في البحث الذي أجريته في بيروت في خلال حرب تمّوز وبعدها، تحضر في ذهني صورة طائرةٍ على وشك السقوط: مشاعر الخوف تجمع الركاب معًا لتشكّل نوعًا من جماعة، وإن موقتة، لا يوحّد أفرادها أكثر من رحلةٍ في الطائرة. الخوف نفسه متشارَك، إذ يتساءل الجميع "ما الذي سيحلّ بنا؟"، مدركين أن الخلاص الفردي بعيد المنال. لكن على عكس رحلة الطائرة حيث يُعرّف بوضوحٍ أعضاء الجماعة وحدودها ضمن المقصورة، يصعب تعريف الجماعة في بيروت. لكن على أيّ حالٍ، كان واضحًا في حرب تمّوز أن الجماعة، أيًّا كانت، ستتأثّر بالحرب سواء استُهدف الفرد وأسرته أم لا؛ ففي نهاية المطاف، قد تؤثر الحرب في مجتمع الفرد، وكذلك في مساحات ذاكرته وتوقعاته للمستقبل.

بالتالي، العيش في الحرب هو تجربةٌ جماعيةٌ وفرديةٌ في آنٍ معًا. هي تجربةٌ تُنقش على أجساد من يعيشون الحرب من خلال لقاءاتهم بالعنف. لكن ذلك القرب من الحرب وتجاربها لا يعني دائمًا المعرفة الواعية بما تتضمّنه، لاسيما نظرًا لكون المعرفة تستمر بالنقش بطرائق تتفلّت من وعينا الإدراكي.

أهدف في هذا النقاش إلى الدعوة لتقدير الموقع الذاتي للباحثة بما يتجاوز أسئلة الأصالة، والجوانب العلائقية ذات الصّلة بموقعيّتها (Crossa 2012)، و"وصولها" أو "دورها في الميدان" (Altorki and El-Solh 1988). إن إجراء البحث في داخل مجتمعنا – أو حتى في مجتمعاتٍ أخرى تربطنا

بها صلاتٌ ما – يسائل العمل الميداني كتجربةٍ محدّدةٍ زمنيًا لها نقطتا بدايةٍ ونهايةٍ واضحتَين. لكن الزمن الفعليّ للبحث يتناول الماضي (ذكرياتنا وتجاربنا المُعاشة في مكانٍ ما) والمستقبل (مخاوفنا بشأن ما قد يحلّ بمكانٍ ما أو بأناسٍ معيّنين). لذا، تمكن مناقشة ذات الباحث/ة ليس فقط من ناحية جنسيتها أو أصولها الإثنية، بل أيضًا من ناحية معرفتها بلغة وثقافة المجتمع. إن اكتساب الباحث/ة مكانة "المطّلع/ة من الداخل" و/أو تمتّعه/ا بمنظوراتٍ داخليةٍ قد تؤثّر في البحث لهُو نتاج الذكريات وتجارب الحياة المتراكِمة، معطوفةً على المخاوف المستقبلية.

هنا، العناية المنهجيّة التي تبديها عالِمة الإثنوغرافيا تجاه التجارب الحسّية، لاسيما لدى مجاورتها مع تجربة "الآخر/ الأخرى" أو "البديل/ة" – كما في علاقتي بليلى مثلًا – أو لدى تمكّنها من أخذ استراحةٍ أو مسافةٍ من العيش في الحرب، تلك العناية تسمح لعامل الزمن بأن يطفو على السطح. إن المقارنة بين تجربة الشخص والآخر، أو بين الحاضر والماضي، تدعم *تحليل* الباحثة، في إطار ممارسة "التأرجح الإثنوغرافي" بين المشاركة/ العواطف والمراقبة/ التحليل – وفقًا لطرح حاج الموصوف في المقال أعلاه. هنا مجددًا، نرى استكشافًا للاختلاف، لكن ليس بهدف دراسة "الآخر الإكزوتيكي"، بل التجربة المتجسّدة للذات.

رائحة الموت

المشهد الثالث: صيف 2006

■■ أنا في مهمةٍ بحثيةٍ في جنوب لبنان في أثناء يومَي الهدنة. أتلقّى اتصالًا يطلب منّي البحث عن أم صديقٍ لي في قريةٍ مجاورة. كان البيت نصف مهدّمٍ من دون أيّ أثرٍ للمرأة التي كان مكانها ما زال مجهولًا. أناقش وزميلتي احتمال أن تكون المرأة تحت الركام، وأقرّر أن أشمّ الرائحة المنبعثة حول الجزء المهدّم من البيت بحثًا عن رائحة جثّة. كان سبق لي أن شممتُ الموت من قبل. لكن كانت تلك المرة الأولى التي أبحث فيها عن تلك الرائحة بقرارٍ منّي. في تجاربي الماضية، كانت رائحة الموت تأتيني وتحيط بي رغمًا عني. كنت طفلةً آنذاك. بعد انتهاء الهجوم الإسرائيلي، تكلّمتُ مع أبي عن تجربة الحرب، وتأمّلتُ في فكرة أنّي شهدتُ ثلاث حروبٍ متشابهة في خلال ثلاثة عقودٍ من حياتي. يومها، قلتُ لأبي أنّي عشتُ حربًا في كل عقدٍ من عقود عمري. أبي، الرجل الستّيني، أجابني وقتها أن الأمر ذاته ينطبق عليه: هو أيضًا شهد حربًا إسرائيليةً في كل عقدٍ من عقود عمره. ■■

لا تغيب الرائحة عن الروايات المعروفة لتجربة معايشة الحرب. في كتابه الأخير، *الموت عملٌ شاق*، يسرد الروائي السوري خالد خليفة تجربة ثلاثة أشقاء تغلّفهم رائحة جثّة أبيهم وهم ينقلونها عبر الأراضي السورية التي تمزّقها الحرب بغرض دفنه في مسقط رأسهم (خليفة 2016). وعلى نحوٍ مماثل، اختار المخرج اللبناني ماهر أبي سمرا (ابي سمرا 2007) عنوان *مجرّد رائحة* لفيلمه القصير بالأبيض والأسود الذي يتناول حرب تمّوز 2006. ويشير أحد المقالات إلى أن الفيلم "يقطّر الحرب حتى الوصول إلى أساسيّاتها"، متحسّرًا بحصافةٍ على عجز "الفيلم" كوسيطٍ عن نقل الرائحة (Quilty 2007).

لكن إذا ما افترضنا أن تطوّر السينما قد يسمح لنا بإضافة التجربة الشمّية إلى عروض الأفلام، فإنّ لقاءً واحدًا قصيرًا مع رائحة الموت يظلّ قاصرًا عن استحضار التجربة الكاملة لمعايشة الحرب. لدى عودتي من الزيارة الميدانية الموصوفة في الموجز أعلاه، كان لمحاولتي شمّ المكان المدمّر بحثًا عن الموت الأثر الأعمق في نفسي. كان ذلك فعلُ فقدانٍ للبراءة، كأنّني أدّيتُ طقوس العبور من طفلةٍ فُرضَت عليها الحرب، إلى راشدةٍ تجابه وجهًا لوجهٍ تبِعات العنف. وكما في التجربة السّمعية، لم تكن تجربتي مع الشّم خاليةً من تجاربي المتراكِمة للعيش في الحرب. كان سبق لي وشممتُ الموت كطفلةٍ من قبل عندما غلّفت رائحتُه مدينة بيروت بعد مجزرتَي صبرا وشاتيلا في العام 1982. كما كنتُ شممتُه قبل 24 ساعة فقط من الحادثة الموصوفة في الموجز، عندما زرتُ منطقةً تعرّضت للقصف حديثًا في بلدة صريفا. كانت الجثث ما زالت عالقةً تحت الركام. وفي بحثي عن رائحة الجثّة، كنتُ أشتبك مع الحرب لا كضحيةٍ كما سبق لي أن اختبرتها في طفولتي، بل كراشدةٍ تجتاز الحربَ وتعبرها.

لكن رغم ذلك، أن تشمّ طفلةٌ رائحة الموت مقابل أن تشمّه راشدةٌ ليسا أمرَين مختلفيَن فحسب؛ فبعد اختباري لها كطفلةٍ، اكتسبَت رائحةُ الموت تلك مجموعةً أخرى من المعاني التي باتت مرتبطةً بها في الكبَر، وهي معاني مغروسة في التجارب المتراكِمة للعيش في الحرب. واقفةً فوق بقايا منزل صديقتي، وجدتُني أتوقّع من جسدي أن يستخدم التجربة المتراكِمة تلك، وأن يكتشف ما إذا كانت هناك جثّةٌ مستلقيةٌ تحت الركام. وبدا ذلك التوقّع غريزيًا وقتذاك، "هكذا رأيتُهم يفعلون، على ما أعتقد!". كانت تلك الألفة المفترَضة – والاستعداد للانخراط في الحرب والموت بذلك القدر من الندّية – نتاجًا لاختباري الحرب في مراحل مختلفة من حياتي.

لطالما جادلت نوردستروم بأن العنف "ليس ظاهرةً عابرةً تتحدّى على نحوٍ مؤقتٍ النظامَ المستقرّ وتترك ندبةً بدلًا من آثارٍ دائمةٍ بعد انتهائها. العنف يصبح حقيقةً حاسمةً في تشكيل الواقع، إذ سيعرفه الناسُ دومًا في المستقبل" (226 ,2004). عندما أتأمّل في تجربتي في البحث عن رائحة الجثّة تحت الركام، ومحادثتي مع أبي، أدرك كيف صاغت الحربُ الواقعَ والطريقةَ العابرة للأجيال التي يختبر فيها الناسُ الحرب. إنّ تأكيد أبي أنه عاش حربًا ضد إسرائيل في كل عقدٍ من حياته، وتوقّعي أنا بأن أكمل مساره هذا في اختبار حروبٍ مماثلةٍ في العقود الآتية، يوسّع البعد الزمنيّ للحرب على نحوٍ يتجاوز حياتي الخاصة.

الحرب جزءٌ من ذلك الإرث – والعبء – الذي ورثتُه عن والديّ. لطالما سمعتُ أبي وأمّي يتحدّثان عن تجارب عيش الحرب والعنف كعلاماتٍ فارقةٍ في تاريخ العائلة، وكبرتُ وأنا أسكن مساحةً تماثل فيها تجربتي المُعاشة الخاصة تجاربهما. وفي خلال حرب تمّوز 2006، تساءلتُ عن سنّ أمّي عندما عاشت الاجتياح والحصار الإسرائيلي لبيروت في العام 1982، وقارنتُ ما أذكره عنها بما كنتُ عليه يومها (Al-Masri 2006). في هذا الزمن المضطرب، إذ أستمرّ بالعيش في مكانٍ يتّسم بنزاعٍ مطوّل، تفزعني معرفة أنّي سأنقل هذا الإرث إلى أولادي. في الأعوام القليلة الماضية، كنت كلما تقدّمت بالتهاني للصديقات والأصدقاء لدى إنجابهم الأطفال، أتمنّى لهم – ككثيرين غيري – أيامًا أفضل من أيامنا. ليست تلك مجرّد مجاملاتٍ عربيةٍ تقليديةٍ تُقدّم للأمهات والآباء الجدد، فقد كنا في ما مضى نتمنّى للأطفال حديثي الولادة أن ينعموا بصحةٍ جيدةٍ وبحبٍّ ودلال الوالدَين. أما اليوم، فنرحّب بهم في هذه الحياة متمنّين ألا تتحقّق في حياتهم إمكانية الحرب التي ندرك جيدًا كم أنها حقيقية.

الخاتمة

في هذا المقال، حلّلتُ بعض تجاربي السّمعية والشمّية المرتبطة بتجارب العيش في الحرب. وبناءً على ذلك التحليل، ناقشتُ الحدود الزمنيّة لتجربة العمل الميداني، بقدر ما تمكن مناقشة حدود مُعايشة الحرب. ولمّا كان العامل الحسّي يستحضر معارف تجربة الحرب المحفوظة في الذاكرة، ولمّا كانت المعرفة تتيح فهمًا أعمق لنسيج التجربة المَعيشة للعنف والنزاع، يغدو السؤال هنا: ما اللحظة الزمنية التي أستطيع أن أزعم أن عملي الميداني بدأ فيها فعلًا، لا سيما نظرًا لكوني محكومة باستدعاء تلك المعرفة المُتذكَرة؟ والأهم، إن الخوف من حربٍ تلوح في الأفق يربط تجربة العمل الميداني بزمنٍ واقعٍ في المستقبل.

مجددًا، موضوع هذا الخوف ليس السلامة الشخصية بل التغيّرات الجذرية في المساحات التي يسكنها المرء وفي مقوّمات الحياة ضمنها. وبالنسبة إلى باحثةٍ تدرس مجتمعها الخاص، وسبق لها وعاشت الحرب في ما مضى ويساورها القلق بشأن احتمال نشوبها مجدّدًا في المستقبل، تتجاور ثلاثة أزمنةٍ في كل لقاءٍ لها مع العنف المباشر. إن مساءلة الحدود الزمنية للعمل الميداني تفتح المجال أمام تأمّلٍ آخر في تموضع الباحث. وأقترح ألا يلحظ اهتمامنا العلاقات بين الباحث/ة والأماكن والأناس والثقافات "المبحوث فيها" فحسب، بل أيضًا التجارب موضوع البحث. إن الاهتمام بالتجربة التراكميّة لمعايشة الحرب – سواء حدثت في سياقنا الخاص أم سواه – يعمّق قدرة الباحث/ة على تمييز الحرب كشرطٍ للعيش بدلًا من كونها مجرّد حدثٍ يُصادَف. أما في ما يتعلّق بالممارسة الإثنوغرافية، فدعوتُ في هذا المقال إلى اعتماد "التأرجح الإثنوغرافي" (Hage 2010) بين التجارب الحسّية للباحث/ة من جهة، وتحليله/ا تلك التجارب وتشاركيّتها بين المُشاركين/ات في البحث من جهةٍ أخرى.

كذلك وصفتُ في هذا المقال كيف تتّسم تجربة الحرب بكونها تراكميّةً وجماعيةً وعابرةً للأجيال. وبصفتي باحثة، أدرس الحرب وأعرف من خلال التفكّر في تجاربي الحسّية أن الحرب بالنسبة لمَن عاشوها هي تجربةٌ نحملها في داخلنا وتحفر معالمها على أرواحنا وأجسادنا، وتصبغ مخاوفنا وتوقّعاتنا المستقبلية. أعرف أنني ورثتُ ذلك الخوف، وأخشى احتمال أن أنقله إلى أولادي، لذا أشعر بدافعٍ وبحاجةٍ ملحّةٍ إلى فهمه وتبديد الغموض الذي يكتنفه.

ملاحظات

[1] نُشرت نسخةٌ أطول من هذا المقال بالإنكليزية في:

Contemporary Levant 2 (1): 37–48. https://doi.org/10.1080/20581831.2017.1322206

وتسنّى العمل على هذا المقال (جزئيًا) بفعل دعم المجلس العربي للعلوم الاجتماعية بمنحةٍ من مؤسسة كارنيغي في نيويورك. وتقع مسؤولية الآراء والأفكار الواردة على عاتق الكاتبة وحدها، كما أن الآراء والأفكار المعبّر عنها تعود لأصحابها والأشخاص المُحاوَرين، وهي لا تمثّل بالضرورة آراء وأفكار المجلس العربي للعلوم الاجتماعية أو مؤسسة كارنيغي في نيويورك.

[2] راجع/ي على سبيل المثال فيلم *شيوعيين كنا* لماهر أبي سمرا (2010)، حيث يبدو في أحد المشاهد أصدقاءٌ كانوا في ما مضى مقاتلين في الحرب، وهم يحاولون التكهّن بخطوط التماس المستقبلية على خريطة بيروت. وفي مقالٍ لها، تشدّد غدّار (2008) على أن الخوف من عودة الحرب الأهلية – التي تحضر مؤشراتها بوضوح – هو أمرٌ مبرّرٌ، مجادلةً بأنّ اللبنانيّين اكتسبوا دروس الحرب الأهلية ولن يعمدوا إلى تكرارها.

[3] يقدّم عمل سارة بينك Doing Sensory Ethnography (2015) لمحةً عامةً ودليلًا جيدًا على ممارسة الباحثين/ات الإثنوغرافيا الحسّية.

[4] لم يكن صوت الطائرات المسيّرة (درون) مألوفًا لدى معظم الناس قبل حرب تمّوز 2006، حين اكتسبت لقب "أم كامل"، وهو لقبٌ يحمل لعبًا كلاميًا يبني على عادة مناداة المرأة باسم ابنها البكر، ويشير في آنٍ معًا إلى اللفظ الفرنسي للحرفَين الأوّلين MK من اسم الطائرة المسيّرة بلا طيّار MikroKopter.

[5] يجب التزام الحذر عند مناقشة الخصائص الجوهرية للتجارب الحسّية، ولا سيما في ظلّ التطوّر التكنولوجي المستمر الذي يفرض طرائقَ جديدةً لإشغال الحواس. على سبيل المثال، ورغم قدرة الصوت على خلق الصلات، غالبًا ما يستخدم ركاب المواصلات السمّاعات كطريقةٍ لخلق حالةٍ من الوحدة (Bull 2000)، كما أن خاصية التشغيل التلقائي للفيديوهات على موقع فايسبوك ترغمنا على مشاهدتها قبل أن نتمكن من إغماض أعيننا، وبرفقة آلاف الآخرين على مواقع التواصل الاجتماعي. إنه تمثيلٌ بصري يولّد جمعًا من المتفرّجين/ات رغم عدم التقائهم/ن جسديًا.

المراجع

باللغة العربيّة

ماهر أبي سمرا. مجرّد رائحة. 2007.
ماهر أبي سمرا. شيوعيين كنا. 2010.
خالد خليفة. الموت عملٌ شاق. 2016. بيروت: هاشيت أنطوان.
مغنية، لميا. 2019. ’العنف الذي "نعيشُ فيه": قراءة العنف في الميدان واختباره‘. المجلس العربي للعلوم الاجتماعية - سلسلة أوراق العمل. كانون الثاني/يناير. http://www.theacss.org/pages/working-papers/823/

باللغة الإنكليزية

Al-Masri, Muzna. 2006. 'Needing a Miracle to Hold My Beliefs Accountable'. Text. The Electronic Intifada. 26 July 2006. https://electronicintifada.net/content/needing-miracle-hold-my-beliefs-accountable/6219.
Altorki, Soraya, and Camilia Fawzi El-Solh, eds. 1988. *Arab Women in the Field: Studying Your Own Society*. Contemporary Issues in the Middle East. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.
Al-Zubaidi, Layla. 2006. 'Nahost-Tagebuch (3. Teil): Eine Reise in den Krieg'. STERN.de. 23 July 2006. http://www.stern.de/politik/ausland/nahost-tagebuch--3--teil--eine-reise-in-den-krieg-3591682.html.
Bendix, Regina. 2000. 'The Pleasures of the Ear: Toward an Ethnography of Listening'. *Cultural Analysis* 1: 33–50.
Berendt, Joachim-Ernst. 1992. *The Third Ear: On Listening to the World*. 1st Owl book/American ed. New York: H. Holt.
Bull, Michael. 2000. *Sounding out the City: Personal Stereos and the Management of Everyday Life*. Materializing Culture. Oxford: Berg.
Bull, Michael, and Les Back. 2003. *The Auditory Culture Reader*. Oxford: Berg.
Coronil, Fernando, and Julie Skurski. 1991. 'Dismembering and Remembering the Nation: The Semantics of Political Violence in Venezuela'. *Comparative Studies in Society and History* 33 (2): 288–337.
Crossa, Veronica. 2012. 'Relational Positionality: Conceptualizing Research, Power, and the Everyday Politics of Neoliberalization in Mexico City'. *ACME: An International E-Journal for Critical Geographies* 11 (1).
Das, Veena. 2007. *Life and Words : Violence and the Descent into the Ordinary*. Berkeley, Calif. ; London: University of California Press.
Ellis, Carolyn, Tony E. Adams, and Arthur P. Bochner. 2011. 'Autoethnography: An Overview'. *Forum Qualitative Sozialforschung / Forum: Qualitative Social Research* 12 (1). http://www.qualitative-research.net/index.php/fqs/article/view/1589/3095.
Feldman, Allen. 1994. 'On Cultural Anesthesia: From Desert Storm to Rodney King'. *American Ethnologist* 21 (2): 404–18. https://doi.org/10.1525/ae.1994.21.2.02a00100.
Ghaddar, Hanin. 2008. 'A Recipe for War?' *NOW*, 2 December 2008. https://now.mmedia.me/lb/en/commentary/a_recipe_for_war.
Hage, Ghassan. 2010. 'Hating Israel in the Field: On Ethnography and Political Emotions in Emotions in the Field: The Psychology and Anthropology of Fieldwork Experience'. In *Emotions in the Field : The Psychology and Anthropology of Fieldwork Experience*, edited by James Davies and Dimitrina Spencer. Stanford, Calif.: Stanford University Press.

Harbi, Rana. 2014. 'Looking Back at Lebanon's 2006 War'. *Al Akhbar English*, 12 July 2014. http://english.al-akhbar.com/node/20712.

Hermez, Sami. 2012. '"The War Is Going to Ignite": On the Anticipation of Violence in Lebanon'. *PoLAR: Political and Legal Anthropology Review* 35 (2): 327–44. https://doi.org/10.1111/j.1555-2934.2012.01206.x.

Hermez, Sami Samir. 2017. *War Is Coming: Between Past and Future Violence in Lebanon*. 1st edition. The Ethnography of Political Violence. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Howes, David. 2003. *Sensual Relations: Engaging the Senses in Culture and Social Theory*. Ann Arbor: University of Michigan Press.

Kelly, T. 2008. 'The Attractions of Accountancy: Living an Ordinary Life during the Second Palestinian Intifada'. *Ethnography* 9 (3): 351–76. https://doi.org/10.1177/1466138108094975.

Moghnieh, Lamia. 2017. '"The Violence We Live in": Reading and Experiencing Violence in the Field'. *Contemporary Levant*.

Nordstrom, Carolyn. 2004. 'The Tomorrow of Violence'. In *Violence*, edited by Neil L. Whitehead, 165–86. School of American Research Advanced Seminar Series. Santa Fe: School of American Research.

Peirano, Mariza. 2009. 'Brazil: Otherness in Context'. In *A Companion to Latin American Anthropology*, edited by Deborah Poole, 56–71. Oxford, UK: Blackwell Publishing Ltd. http://doi.wiley.com/10.1002/9781444301328.ch3.

Pink, Sarah. 2015. *Doing Sensory Ethnography*. 2. ed. Los Angeles, Calif.: Sage.

Quilty, Jim. 2007. 'Strange Alchemy: Devising a Language to Make Art from War in Lebanon'. *The Daily Star*, 21 April 2007. http://www.dailystar.com.lb/Culture/Art/2007/Apr-21/114791-strange-alchemy-devising-a-language-to-make-art-from-war-in-lebanon.ashx.

Riches, David, ed. 1986. *The Anthropology of Violence*. Oxford, UK ; New York, NY, USA: Blackwell.

Stoller, Paul. 1989. *The Taste of Ethnographic Things: The Senses in Anthropology*. Contemporary Ethnography Series. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

———. 1997. *Sensuous Scholarship*. Contemporary Ethnography. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Tonkiss, Fran. 2003. 'Aural Postcards: Sound, Memory and the City'. In *The Auditory Culture Reader*, edited by Michael Bull and Les Back, 303–9. Oxford: Berg.